

أبو القاسم سعد الله
ومنهجه في التأريخ للأدب والشعر والنقد بالجزائر

الدكتور: جعفر زروالي
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف- الجزائر

توطئة:

ارتبط اسم أبي القاسم سعد الله (1930-2013)، لدى القارئ الجزائري، بمختلف أصنافه، بالمشروع الضخم (تاريخ الجزائر الثقافي)(1) الذي بدأ نشره سنة 1981، والواقع أن لسعد الله أعمال أخرى غير ذلك الذي ذاع صيته وانتشر بين جمهور القراء والدارسين والباحثين، فقد ألف الرجل في مجالات ثلاثة مشهورة: الأدب، التاريخ، والدراسات(2)، وكانت آثاره في ذلك موجهة إلى الإبداع ورصد المخطوطات وتحقيقها، والتاريخ، وهو مجال اختصاصه، حتى لقب في ذلك بشيخ المؤرخين، أطلق عليه الشيخ إبراهيمي لقب: "النّاقِد الصّغير" فكتابات في معظمها، يغلب عليها طابع التأريخ ومجالاته كالتحقيق والتوثيق والجمع، ولاغربة في ذلك مادام فيها تخصص، وفيها فصال وجال، فكانت هذه الأعمال إثراء للمكتبة الجزائرية والعربية على حد سواء، فهي بالنسبة للجزائريين حفظا لتراثهم الأصيل، وتوجهت نحو التعريف بهذا الإرث بالنسبة للعرب، الذين كنّا في حاجة ماسة إلى أن يطلعوا عليه، ويكتشفوا مواطن الجمال والإبداع فيه، يقول سعد الله: «... غير أنّ الفرصة لم تتح بعد للتعريف بهذا الأدب، وقد كانت هذه الحقيقة هي التي دفعتني إلى نشر هذه الدراسات» ص: 6 (3)، والتي بدأت مقالات نشرها في الصحافة، ثم جمعت فيما بعد ليصدرها كتابا، أطلق عليه عنوان: دراسات في الأدب الجزائري الحديث(4).

ورأى في الإطار نفسه أنّ هناك فراغا رهيبا في المكتبة العربية فيما يتعلق بالأدب الجزائري، وانقطاعا بائنا للعرب عن الجزائر، فالباحث «في شؤون الأدب العربي يصدمه الفراغ المخيف الذي تعانيه المكتبة العربية بخصوص الحركة الفكرية الجزائرية، ولعلّ مسؤولية هذا النقص تقع على كامل المثقف العربي نفسه فطيلة مرحلة النهضة العربية اعتاد هذا المثقف أن يحصر بحثه واهتمامه بجزء معين من الوطن العربي وإهمال الأجزاء الأخرى، ممّا تسبّب عنه تمزيق الحركة الفكرية العربية وأقلمتها»(5)، وهو سلوك يبقى غير مبرّر، وغير مفهوم إلى غاية اليوم، وهذه الحالة وقف عليها سعد الله عند حلوله طالبا بالقاهرة، يقول في ذلك: «وبعد قدومي إلى المشرق العربي (خريف 1955)، صدمني ضعف العناية بأدب المغرب العربي عامّة وأدب الجزائر خاصّة، فأخذت على عاتقي أن أعرف على الأقل بالأدب الأخير، وقد كانت أحداث الثورة في الجزائر تشجّعني وتثير حماسي لزيادة البحث، وكانت نتيجة ذلك الجهد بعض الأشعار والأبحاث التي تناولت أدب الجزائر من جوانب مختلفة»(6).

كانت هذه الدراسات دافعا قويا لظهور أعمال جزائرية أخرى، تهتم بهذا الأدب وأعلامه، قام بها باحثون جامعيون وغير جامعيين فخلال الفترة التي أعقبت تلك الدراسات التي قام بها سعد الله، وجمعها وأصدرها في كتابه المذكور آنفا فقد «ظهرت دراسات كثيرة حول الأدب الجزائري، جامعية وغير جامعية، منها

مايؤكد ما جاء في أبحاث هذا الكتاب وبعضها ينقضها ومن ذلك ما كتبه الدكتور صالح خرفي عن رمضان حمّود، والدكتور عبد الله ركيبي عن جلواح، وما كتبه المرحوم سعد الدين بن أبي شنب عن النهضة الثقافية العربية خلال القرن الماضي (7)، بل وماكتبته أنا شخصيًا عن الشاعر محمد العيد (8)، وعن الشاذلي القسنطيني (9)، وعن النهضة الثقافية في كتاب عن الحركة الوطنية الجزائرية (10) «(11)».

لقد كان سعد الله ومن منطلق تخصصه العلمي، مدركا لواقع بلده وشعبه وأمتة، مركّزا مع العديد من الحثيات التي صاحبت هذا الإدراك، ممّا تولّد لديه رغبة صادقة في دراسة الوضع الفكري والأدبي والثقافي الذي كان محيطا بكلّ ذلك، فاستفاد من منهجه في البحث التاريخي، ليدرس الواقع الأدبي الجزائري من مختلف جوانبه ومعالمه وأسسها التي يقوم عليها وآلياته التي أسهمت في ظهوره وبروزه.

-إسهامات أبي القاسم سعد الله في التأريخ للأدب العربي في الجزائر:

لقد رأينا، أنّ نسلط الضوء على إسهامات أبي القاسم سعد الله في جانب هامّ من دراساته ومحاولاته وضع كرونولوجيا (12) تاريخية للأدب والشعر والنقد في الجزائر، سيرا على ما انتهجه القدامى أو المستشرقون (13) في التأريخ للأدب العربي، أو لأدب بلد ما كما هو الشأن بالنسبة لأدب الشام والعراق ومصر وغيرها.

وهذه الكرونولوجيا التي دأب المؤرخون والدّارسون على وضعها إنّما أجريت لتساعد في رصد إنتاج مرحلة معينة ومعرفة خصائصه ومميزات هذا الإنتاج، ومن ثمّ المساعدة في تحليله وردّه إلى منابعه وموارده ومظانته.

لقد التفت سعد الله إلى المنتج الأدبي والشعري والنقدي بالجزائر، خلال فترات زمنية محدّدة معينة، عاشها وسائر أحداثها، ثم راح يرصد إنتاجها ويتتبع ماتوقرت عليه من إسهامات ترسم ملامح الفترة أو المرحلة المقصودة، وقد انحصرت هذه الدراسات في ثلاثة عناصر رئيسة كبرى، هي: الأدب، الشعر، النقد.

أولا: الأدب:

نشر سعد الله مقالة في مجلّة (الرسالة) العراقية (14)، مقالة متوسّطة الحجم بعنوان: (الأدب الجزائري مؤثراته وتياراته) (15)، تناول فيها قضايا شاملة، كان الهدف منها هو مخاطبة المشاركة، ومحاولته تعريفهم بهذا الأدب، مستغلا المقام لإبراز منزلة هذا الأدب بين نظرائه في الوطن العربي، إذ «يمثّل الأدب الجزائري صفحة هامة من الأدب العربي، ولئن حالت الظروف دون نشر هذه الصّفحة أو إلقاء الضوء عليها، فإنّ ذلك لا يقلل من أهميتها القومية، بل ربّما حفّز الباحثين على بذل الجهود لنشرها ووضعها في مكانها من تراث الأمة العربية الكبرى» (16)، فسعد الله يذهب هنا إلى أبعد من التعريف، إذ يدعو الدّارسين والباحثين العرب إلى الالتفات إلى هذا الأدب بالنقد والدراسة والتّقويم.

تناول سعد الله في هذا المقال القضايا التالية:

- شخصية الأدب الجزائري.
- جمود الحركة الأدبية.
- المؤثرات.

1- شخصية الأدب الجزائري: رغم الهزّات التي تعرّضت لها الجزائر بفعل الاحتلال الأجنبي إلا أن الانتماء إلى الشرق بقي صامدا ثابتا بكل معالمه وقيمه ومنجزاته، ومنه الأدب «والواقع أن الحديث عن الأدب الجزائري يشبه الحديث إلى حدّ كبير كلّ حديث عن الأدب العربي بصفة عامّة في كلّ بيئة من بيئاته الوطنية، فقد عاش هذا الأدب نفس الظروف والمشكلات التاريخية والفكرية التي عاشها الأدب العربي» ص: (17). ولما تعرّضت الجزائر للاحتلال، نقل إليها هذا الوافد الثقيل سياسته وفكره وعقيدته وثقافته، محاولة منه للتأثير في صميم المجتمع وعقله وفكره، فباءت محاولاته بالفشل الذريع، فالجزائر «لم تفقد شيئا من ذلك فيما يتعلّق بفكرها وحضارتها وفنّها وثقافتها، فبقي هذا الجانب محافظا» (18). على أصالته وانتمائه وروحه، رغم أنّه لم يكن على درجة عالية من النضج إذا قيس بنظيره في الشرق. «وإن كان الاستعمار قد أفاد بعض البلاد العربية حين نقل إليها المطبعة والصّحف والجالس العلميّة ونحو ذلك، فإنّه في الجزائر كان على عكس ذلك تماما، إذ لم يأت لينشر حضارة وإنّما جاء لسلب أفكار الشعب وبزور تاريخه ويحطّم كيانه ويستغلّ ثروته، وبذلك تعرّضت شخصية الأدب التي ظلّت محتفظة بمقوماتها وملامحها إلى هزّات عنيفة كادت تفقدها تلك المقوّمات والملاح، لأنّها لم تستطع أن تواجه الغزو الثقافي بنفس العتاد الذي جاء به الاحتلال في عنفوانه وانتقامه، ولم تستطع أن تطوّر ذاتها بالطريقة التي يفترضها تخطيط العدو وبرامجه في الهدم والتسلّط وإزالة المعالم القومية» (19).

2- جمود الحركة الأدبية: لقد اتّسمت هذه الحركة بالتباطؤ «وفقدان التوازن بين قوّة العناصر الوطنية وبين وسائل الاحتلال تحجّر وجمود في الحركة الفكرية عموما وحركة الأدب على الخصوص: فقد تشبّنت كلّ الجهود العقلية المنتجة، وتشردّ الأدباء والشعراء الوطنيون واندمج بعضهم في الحركة المقاومة التي أعلنها الشعب فترة طويلة ضدّ الغزاة، وشغل الناس عن الأدب والشعر. لم يعد من همّهم التعبير الجميل، والغزل المليح، والوصف الرائع، لأنّ ذلك لن يغنيهم عن النار التي يتلظّون بها فتيلًا، ولن يقف بينهم وبين الغاصبين حائلا، بل لن يجدوا الوقت الذي يستمعون فيه بمثل هذا الأدب الذي كان يخاطب العاطفة بالغزل والخمر والرياض، ويخاطب العقل بالحكمة والزهد والفلسفة» (20).

وإذا كانت الجزائر عرفت هذا الجمود الأدبي من وجهة نظر سعد الله، فإنّها لانت في مجال النضال والمقاومة لتجابه الاحتلال وجبروته وعنفوانه، ولا شك أنّ هذه الليونة ستنتج فيما بعد أدبا يكون في مستوى قوّة هذا النضال والمقاومة، فهذه المرحلة وإن ساد فيها «الرّكود والجمود حركة الأدب، وكسدت سوق الإنتاج حقبة طويلة، وكأنّ الأدب أصبح ينتظر عهدا من الاستقرار والهدوء أو ينتظر بعثا سحريا يشيع فيه الحياة لكي ينهض ويتحرّك ويعبّر عمّا يجيش في قلوب الناس من حنين إلى حريتهم المفقودة، ومن تحفّز للانطلاق والثورة، من ألم يكاد يمزّق النفوس هزيمة ويأسا، ويقضي عليها خيبة وانتحارا» (21) فإنّ هناك أصوات بدأت تنبعث مسيرة حركة الشعب المقاومة للاحتلال وأساليبه الجهنمية في الظلم والاضطهاد...

3- المؤثرات:

الأدب مثل غيره من مظاهر الحياة والمجتمع، معرّض لتأثيرات داخلية من خلال التّواصل اليوميّ بين المجتمع الواحد، وأخرى خارجية التي تحدث بفعل التّفاعل والاحتكاك بين الفينة والأخرى مع مجتمع آخر

مجاورا كان أم زائرا وافدا، وقد رأى سعد الله أن الأدب الجزائري كغيره من الآداب العالمية، كان عرضة لمؤثرات مختلفة، اختصرها في ثلاثة هي:

* **المؤثر الغربي:** وهو مؤثر خارجي، حدث بفعل غزو الاستعمار الفرنسي للجزائر، فكان متمثلا في ثقافته وفكره، وفي فكر وثقافة الغرب برمته، وقد تبنت طائفة من الجزائريين هذا الاتجاه ودعت إليه، وفي الواقع أن الداعين إليه كانوا «يحاولون تغطية النقص الفاضح الذي تعانيه الجزائر من حضارتها الشرقية التقليدية ولذلك اندفعوا يحملون هذا الشعار (التقدمي)» (22) مع الاشتراكية الاستعمارية تارة ومع العقلية العلمية ومبادئ الثورة الفرنسية تارة أخرى» (23)، لقد وجد هذا المؤثر فراغا رهيبا كان سببه الشرخ الواسع الذي أحدثه انفصال الجزائر وبلاد المغرب العربي عموما عن الشرق وحضارته بفعل الحركة الاستعمارية الحديثة، فجاءت الدعوة إلى فرنسة الفكر والثقافة الجزائرية، وسلخها من أصلها الشرقي «وأدى ظهور هذه الدعوة الخطرة إلى ظهور طائفة من المفكرين والأدباء والشعراء بعد الحرب العالمية الثانية، كانت تجربتهم جزائرية ولكن وسائلهم واتجاهاتهم كلها غربية» (24). ولحسن الحظ فإن الانتماء الوطني والقومي مازال حيا في نفوس الجزائريين فقد «خفت حدة هذا المؤثر منذ الثورة حيث تغلبت المؤثرات القومية الأخرى، وبرزت الاتجاهات الوطنية التي طالما خنق الاستعمار أصواتها لأنها تحمل بذور الانفصالية عن فرنسا، وتعبّر عن رأي الشعب في تكوينه الذاتي والأخلاقي والتاريخي الخاص» (25).

* **المؤثر الشرقي:** يعني به سعد الله «اقتداء الشعب الجزائري بما يجد في الشرق العربي من أفكار واتجاهات وما يحدث فيه من هزات قومية سواء أكان عمادها الماضي ومجده أم الحاضر في قلقه وتحقّزه» (26)، وهذا المؤثر لم يكن ليوجد لولا ذلك الشعور القوي بالانتماء الذي كان متأصلا في ضمير الشعب الجزائري، الذي ما اعتبر نفسه يوما أنه والشرق اثنين، يقول سعد الله: «ولم يكن الشرق بواقعه... المذكور منفصلا عن الجزائر رغم ما بناه الاستعمار من حيطان للفصل بين الجزائريين وأشقيائهم، فقد كانت كل خطوة تحررية، أو دعوة إصلاحية، أو ثورة أدبية يصل صدها بسرعة مذهلة إلى الجزائر، وتتفاعل مع الجيل الذي يستقبلها مرحبا مستفيدا من خبرتها وحرارتها» (27). ولا شك أن هذه التفاعلات العاطفية والموضوعية لهذا المؤثر لم تأت دفعة واحدة، وإنما خضعت بدورها لسنة الزمن، فقد تطوّر تأثير هذا المؤثر «بحسب الفرص التي أتاحت له فكان في أواخر القرن التاسع عشر ضيقا محدودا، وكان في أوائل هذا القرن (28) أكثر اتساعا وأشدّ حرارة، ثم أصبح قدوة بارزة للأغلبية الساحقة من الجزائريين منذ ظهور الدعوة الإصلاحية ومؤيديها من الطوائف الأخرى» (29).

لقد كان مفعول هذا المؤثر وبالإضافة إلى المؤثر السياسي، قويا ماثلا في واقع الشعب الجزائري، فقد أدى في النهاية، رغم فتوة حركته «إلى الانفصال التام عن فرنسا في مفهوم الثورة الوطنية الحاضرة» (30).

* **المؤثر الوطني:** وهو المؤثر الأخير، وقد عني به سعد الله «مجموعة الأحداث الكبيرة التي ظهرت في الجزائر متخذة من السياسة عنوانا، ومن الوطنية شعارا، مستهدفة جمع الشعب الجزائري تحت راية واحدة، زاحفة به نحو تحقيق آماله في الاستقلال والحرية» ص: 25، (31). وهذا المؤثر استمدّ فعاليته منذ ظهور الحركة الوطنية إلى غاية اندلاع ثورة أول نوفمبر «ومن ثمّ يمكن القول بأنّ الحركة الوطنية قد أثرت في الأدب

وفي جميع مراحلها، غير أنّ هذا التأثير اتخذ شكل التأييد المطلق وأغنى الأدب بتجاوب السياسة في بعض الأحيان، واتخذ مرة أخرى شكل المعارضة والدعوة إلى مفاهيم جديدة تحقق للشعب حياة أكمل وأوفر كرامة من حياته في ظلّ الاحتلال.» (32).

فهذه المؤثرات من وجهة نظر سعد الله أثّرت بشكل مباشر وكبير في الأدب الجزائريّ، وكان هو في المقابل مرآة عاكسة لها، مترجما لأفكارها، مؤرخا لكل مايتصل بها من وقائع وأحداث، كما أنّ هذه المؤثرات قد أضاءت لنا فكرة «العلاقة بين الأدب وبين دوافعه الأصلية التي أعطته نسغ الحياة، وحددت له تياراته التقليديّة أو الرّومانتيكيّة أو الواقعيّة» (33).

- 4 التيارات الأدبيّة في الجزائر:

حدّد سعد الله هذه التيارات (34) في ثلاثة اتجاهات، وهذه التيارات هي امتداد للمؤثرات السابقة، يقول سعد الله «ويمهنا الآن أن نتحدّث عن أهم التيارات الأدبيّة التي ظهرت في الجزائر متأثرة بالمؤثرات السابقة أو منفصلة عنها» (35).

* التيار التقليديّ: عادة ما يطلق هذا المصطلح لوصف كل حركة قديمة محافظة تتبّع من سبقها، وتقتفي أثره، وهي كذلك عند سعد الله، يقول: «لم يظهر هذا التيار جديدا في الوسط الأدبيّ، لكنّه كان استمرارا للحركة القديمة شعرا ونثرا، وكان عماد هذا التيار المحافظة على عمود الشعر القديم، الاحتفاظ بخصائص القصيدة العربيّة الموروثة دون تطوير وتجديد، فالقافية واحدة، والوزن واحد، والمعاني ساذجة مقلّدة، والموضوعات لاتخرج عن الرثاء والمدح، والزهد والإرشاد، والأسلوب مهمل، حائل الألفاظ، بارد الصوّر» (36)، وذكر سعد الله روادها من أمثال: أحمد كاتب الغزالي، عاشور الحنفي، المولود بن الموهوب. وهذه الوقفات النّقديّة هي صادرة عن مؤرّخ متذوّق للأدب، فربّما هناك من يعتبر هذه الخصائص عين الصّواب ومكمن القوّة التعبيريّة الجميلة، عكس ما أبداه سعد الله اتجاهها..

* التيار الرّومانتيكي (37): وهذا التيار يتبنّى الجديد، ويثور على كلّ قديم، ويعلن الخصومة لكلّ ذلك، وهو لم يكن عندما «ظهر بعد الحرب العالميّة الأولى مباشرة إلا رد الفعل للأوضاع التي وصفناها، ولعلّه إذ يكون نتيجة محتومة لعوامل اجتماعيّة وسياسيّة خلقها الاحتلال، متأثر بعاملين آخرين هامين أحدهما وصول المبادئ الرّومانتيكيّة (38) من فرنسا إلى الجزائر، وتأثر الجيل الدّارس للثقافة الفرنسيّة بتلك المبادئ وما تحمله من بذور ثوريّة وأنغام حزينة، وصور بنائية حاملة جديدة، وأمّا الثاني فهو تأثر هذا التيار بكلّ من مدرسة المهجر (39) وجماعة أبوللو (40) الرّومانتيكيّتين، وذلك أنّ أدباء الجزائر لم يكونوا منفصلين عن تطوّر الحركة الشّعريّة في الأدب العربيّ» (41).

* التيار الواقعي (42): «وقد جاء هذا التيار نتيجة تطوّر الحركة الوطنيّة في الجزائر، فبعد تبلور المفاهيم القوميّة في أذهان النّاس، ووضوح المبادئ السلميّة والثّوريّة التي اعتمدتها عليها الحركة في خطّ سيرها المنعرج الطّويل، بعد هذا كان التّعاش بين التيار التقليديّ والتيار الرّومانتيكي قد بدأ ينفصل، وأخذ يفسح المجال لظهور تيار جديد يحمل معه قوى اندفاعيّة وإمكانات تعبيريّة هائلة، والحقّ أنّه كان لهذا التيار فرع عربيّ اللّغة واضح الأهداف، شديد الارتباط بالشّعب، كثير الاعتماد على الجمع بين القديم

والحديث، وقد تمثّل في الشّعر العربيّ الذي نظم بين 1930-1954، وفرع فرنسيّ اللّسان، غامض الأهداف، كثير الاعتماد على الحديث، وقد تمثّل هذا في الرّواية والقصة وبعض الأشعار المستمدّة من صميم الحياة الشّعبية، وكان ظهوره في الأدب الجزائري بين 1946-1954. «(43). فالواقعية وجدت تربة خصبة في الجزائر كما وجدت في غيرها من الأقطار، لأنّها وببساطة، صورت حال المجتمع وعبرت عن ألامه، وتبنّت آماله، وبشّرت به بمستقبل مشرق، وجعلته ينظر إلى الحياة بمنظار أبيض، «ولعلّ المتنبّع للمؤثّرات والتّيارات الأدبية في الجزائر يجد خلاصتها جميعا هو التّيار الواقعيّ الذي ظهر كما قلنا في ظلّ الحركة الوطنية واستمدّ منها صورهُ وحرارته وصدقهُ، واتّصل معها بالشّعب الذي زوّده بالغايات والمعتقدات، وطرق العيش التي كان أدبنا التّقليديّ أو الرّومانتيكي بعيدا عنها، إمّا ترقّعا وكبرا، وإمّا هروبا وعجزا عن مجابهتها بصراحة وقوّة» (44).

ثانياً: الشّعر:

كتب سعد الله مقالا مطوّلا وسمه بـ: (تصميم للشّعر الجزائري الحديث) فصلّ فيه قضايا عديدة تتعلّق بالشّعر الجزائري، وقد نشر هذا المقال في مجلّة (الأداب) ببلبنان (45)، رأى سعد الله أنّ «الذي ساعد على بقاء الجزائر تحت الاستعمار هو الفراغ الأدبيّ الذي كانت تعانيه، والذي جعل كلّ شيء صامتا لا ينبس، هادئا لا يتحرّك، راضيا لا يتمرد، ذلك أنّ الأدب الجزائري الحديث، وخصوصا الشّعر، لم يكن عند ظهوره محدود الهدف، عميق الصّوت، قائد الخطوات، وإنّما ظهر إلى جانب النّشاط الوطنيّ الآخر وسار معه دون أن يتقدّمه خطوة واحدة رائدة أو يتمرد على مفاهيم معيّنة ذاتية» (46).

وقد اصطبغ هذا الشّعر خلال فترات مختلفة بصبغة شرقية خالصة، فكانت المدرسة الشّرقية هي الفضاء الذي انطلق منه، وهذه المدرسة هي «مدرسة شوقي وحافظ والرّصافي، وهي مدرسة زعماء الشّعر الإصلاحيّ... أو التي يسميها العقّاد المدرسة الوسطى، فهؤلاء الشّعراء ساروا مع النّهضة العربية الصّاعدة، وعبروا عن أزمات ويقظة الشّعب العربيّ، واتّخذوا من الواقع العربيّ-الإسلاميّ، موضوعات خصبة، ومن هنا نستطيع القول بأنّ هذه المدرسة الشّرقية قد انتقلت إلى الجزائر مع فارق واحد، هو أنّ شعراء الجزائر قد ألبسوها ثوبا محليّا وصبغوها بألوان بلادهم ولعلّ محمّد(كذا) العيد، وأحمد سحنون، ومفدي زكريا، ومحمّد(كذا) اللّقاني، والغزالي، وأمين(كذا) العمودي، وسعيد(كذا) الزّاهري، والهادي السنوسي، أحسن من يمثّل هذه المدرسة في الجزائر» (47).

وقد تضمن هذا المقال المسائل التّالية:

1- انبثاق الشّعر: نظر سعد الله إلى الشّعر الجزائري الحديث نظرة متشائمة لا تفاؤل يرجى إثرها، وذهب إلى أبعد من ذلك حين حكم عليه بالضعف والنّقص بل وحكم عليه بالموت، وبالتالي لم يكن أهلا للبحث والدراسة، يقول: «والحق أن الشّعر الجزائريّ لن تُغريه السّياسة مهما بالغت في الجاذبية، فلم يسر في ركاب أي حزب، ولم يكن بوقا في انتخابات أو جرسا في كرسيّ معيّن، غير أنّه يؤخذ على هذا الشّعر أنّه كان أحيانا-كالشّعر الطّربي- بجانب التّيار الوطنيّ المندفع ويكتفي بالدّوران حول نفسه! وفي حلقة مفرغة، فيها كثير من التّعقّن والدّباب، لذلك فإنّه لا يمكن للباحث أن يعير اهتماما لهذا الشّعر وحسبه أنّه لم يجد أي صدى ولم يحدث أن اتّجاه، وبالتالي مات في مهده إلى الأبد» (48) ولكن مانتمناه أن يكون سعد الله على الأقلّ مخطئا

في هذا الموقف القاسي الحادّ، خصوصاً إن نحن وضعنا هذا الشّعر في إطاره الزّمنيّ والظّرفيّ والوضع الأليم الذي نشأ فيه، أم أن هناك غاية ما يريد سعد الله الانفراد بها دون غيره، فأخفاها عنّا ولم يعلمنا بها؟.

ويكشف سعد الله منهجه في تناول هذا الشّعر مصرّحاً بقوله: «يجب أن يكون واضحاً أن تناول الشّعر على هذا النّحو لم يكن مستنداً على اعتبار أن كلّ فترة تمثّل حدّاً فاصلاً، إن المقصود من ذلك التّناول يقوم على تتبّع الأحداث التّاريخيّة ومدى تأثيرها في الشّعر، ولذلك فإنّه في أحيان كثيرة يصعب التّمايز في الطّابع العام لهذا الشّعر» (49)، ويقول في موضع آخر: «نعتقد أن شيوخ الشّعر لديهم إنتاج كبير يمثل روح هذه الفترة المجيدة من كفاح الجزائر ولكن لن نتعرّض لشعرهم هنا لأنّ هدفنا هو التّأريخ للشّعر الحديث متتبّعين مراحل وأصوله» (50).

2- تصميم لدراسة الشّعر الجزائري الحديث: وضع سعد الله لهذا الشّعر الذي انتقده بحدّة، وهاجمه بشدّة، تصميمًا يساعد على دراسته والبحث فيه، يقول: «ولدراسة ذلك الشّعر دراسة تتمشّي مع الآراء السّابقة وضعنا له هذا التّصميم، وذلك بتقسيمه حسب الفترات التي يكثر فيها الاضطراب الشّعبي وتندافع أثناءها الأمواج الوطنيّة في أشكال مختلفة ومن الممكن أن يكون هذا التّصميم على النّحو التّالي:

- شعر المنابر: بداية من أواخر القرن الماضي إلى 1925.

- شعر الأجراس: 1925-1936.

- شعر البناء: 1936-1945.

- شعر الهدف: 1945-1954.

- شعر الثّورة: 1954. «(51)

1- شعر المنابر: بداية من أواخر القرن الماضي إلى 1925: وهو شعر يتخذ الخصائص الأسلوبية نفسها التي تميّز بها الخطب المنبريّة، ففي «هذا الشّعر كثير من روايب الماضي ومخلفاته، ونحن إذ نطلق عليه هذا الاسم نقصد المعنى اللفظيّ للعبارة، فهو شعر منبريّ لحما ودما، ذلك أنّ أساسه الوعظ والإرشاد وأصباغه دينيّة يكثر فيها لفظ الإسلام والإصلاح والسّلف وماشاكلها، كما أنّ أهدافه إصلاحية ترمي إلى إنماء الوعي الشّعبيّ عن طريق الدّين والمبادئ الخلقية» (52). فهذا النّوع من الشّعر في حقيقته يعكس الشّعور العام للشّعب الجزائريّ الذي استشعر الخطر المحدق بوطنه ودينه وبشخصيته، فراح يتمسك وبشدّة بتعاليم دينه ووطنه، ويشدّ على كلّ ذلك بالنواجذ، وقد اشتهر من شعرائه في هذا النّوع «عاشور الخنقي، عبد الرّحمن الدّيسي، أبو اليقظان، الطّيب العقبي، محمّد اللّقاني، السّعيد الزّاهري، الهادي السّنوسي، أحمد الغزالي، الجنيد أحمد مكّي» (53).

2- شعر الأجراس: 1925-1936: لاحظ سعد الله أن شعر المنابر بدأ يتخلّص من أساليب الخطابة لينتقل إلى حالة موسيقية أكثر إيقاعاً ورنيناً، فقد «استبدل الشّعر في هذه الفترة نغمة جديدة لم تخرجه عن النّقطة التي بدأ منها -الإصلاح- ولكنّها نغمة تمتاز بالقرع والاهتزازات المباشرة، ومردّ هذا التّطوّر من المنبر إلى الجرس أنّ الجزائر شهدت تحولات سياسيّة جذريّة، وميلاد جمعيّة العلماء المسلمين التي كانت حركة إصلاحية غير رسميّة، كما شهدت الجزائر مولد الحزبين

الشيوعي والاشتراكي، وظهرت جريدة (البصائر) وتقوّت مجلة (الشّهاب) وغيرها من الصّحافة الوطنيّة» (54). فهذه العوامل ساعدت بشكل مباشر في هذا التحوّل الذي عرفته الجزائر على مختلف المستويات ومنها الشّعور الذي اكتسب «من هذا الجوّ طاقة جديدة وذخيرة تعبيرية لم يجدها منذ حوالي قرن، لذلك راح يدق الأجراس ويطلق الصّفارات متمشيًا مع التيار الوطني المتدفّق من نفسيّة الشّعب» (55). ومن أبرز من خاض تجربة شعر الأجراس: «محمّد العيد آل خليفة، الأمين العمودي، جلّول البدوي، مفدي زكريا» (56).

3- شعر البناء: 1936-1945: يرى سعد الله أن هناك تحوّلًا حاصلًا في ضمير الشّعب وفي ذهنه، خاصّة أمام التّحديات الكبرى التي أصبحت تواجه البلد، وقد تمثّل هذا التّوجه نحو ترسيخ الوحدة والتّضامن والوقوف صفاً واحداً من أجل مجابهة الاستعمار، وأساليبه ومخطّطاته، فكان الشّعور من الوسائل التي اتخذت للتّعبير عن هذا الشّعور الوطني، ففي «هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الجزائر، أخذ الشّعور على عاتقه الدّعوة إلى الوحدة الشّعبية والوطنية النّقية، وعلى التّحرّر من الماضي البغيض ونسيان الذّات في سبيل المثل العليا، كما أخذ شعر البناء يواجه العدوّ بشيء من الصّراحة والتّسديد، ويبدشّر بما في الجزائر من طاقات مدخورة وما فيها من خصائص تميّزها وتجعل منها شخصيّة نموذجيّة ومن أجل هذه النّظرة إلى القضايا الوطنيّة أسمينّا هذا الشّعور شعر بناء» (57) وقد تجسّد شعر مرحلة البناء في أشعار محمّد العيد، وأحمد سحنون ومفدي زكريا.

4- شعر الهدف: 1945-1954: انتهت الحرب العالميّة الثّانية، وخرج العالم محتفلاً، ولم يتخلّف الشّعب الجزائريّ عن الحدث، فاستغل الموقف ليذكّر فرنسا بوعودها، فقابلته بقوة الحديد والنّار، فكانت مجازر الثامن مايو العصيبة، فبعد هذه المجزرة «التي ذهب ضحيتها أكثر من أربعين ألف جزائريّ، حين كان الحلفاء يحتفلون بانتصارهم، اكتسب الشّعب الجزائريّ تجربة جديدة نهته إلى الحقيقة المرّة، وهي أنّه لا أمل في التّحرّر من غير سلاح، وهذه المجزرة وإن خلّفت جراحاً وآلاماً كثيرة، جعلت الشّعب ييأس من المحاولة السّلبية ويكتشف نفسه التي كانت تائهة في ضباب السّنين، وبفضل تلك المأساة ظهرت في أفق الجزائر ألحان الحرية والضّحايا والاستقلال والعلم الرّفرف، إلى آخر هذه الرّموز المقدّسة لدى الشّعب، التي لم تكن لتظهر لولا التّطوّر الكفاحيّ الذي كان يدنو من الهدف» (58). وقد حمل الشّعور على عاتقه تلك الأفكار، ووظّف تلك الرّموز، وسار شعراء المرحلة إلى جانب الشّعب في خطّ واحد «ومن ظهور تلك الرّموز ظهر عدد آخر من الشعراء كان في طليعتهم الرّبيع بوشامة، وعبد الكريم العقون، وأحمد الغوالي، وموسى الأحمد، وحسن حموتن، والأخضر السّائحي، ورغم ذلك فإنّ القيادة الشّعريّة كانت مازالت في يد محمّد العيد وسحنون وزكريا (59)، وهذا دليل على قوّة الاتّجاه المحافظ في الشّعور الجزائريّ، وثباته أمام الهزّات المختلفة التي تطال الأدب وأنواعه بين الفينة والأخرى.

5- شعر الثّورة: 1954: كانت ثورة الفاتح نوفمبر الحدث الأبرز في مسيرة النّضال للشّعب الجزائريّ في العصر الحديث، وهي نتيجة لعوامل وأسباب معلومة، ونتائجها كانت وفق مقدّماتها، ونظراً لشعبيّتها، فإنّها عرفت التفافاً من جميع الاتّجاهات والأفكار الموجودة آنذاك، ولم يتخلّف الأدب وخاصّة

الشعر منه عن مسابقتها ودعمها، فحين «اشتعلت الثورة أذكت العواطف وهزت المشاعر الأقدام التي كانت من قبل مكبوتة، وفتحت أمام الشعر آفاقا ما كان يستطيع أن يحلم بها لولا الدّم والنّار والحديد، وقد تفجّرت نتيجة لذلك، عواطف الشعراء، بشعر ثوريّ عارم يسجل انتصارات الثورة ويبشّر بالاستقلال والغد الحرّ، ويتغنّى بالوطن والحرية، ويشارك المحزونين المتألمين، ويضمّد الجراح ويكفّف الدّموع، ويخلّد الشّهداء والأبطال والوقائع، هذه الطائفة من الشعراء كانت وليدة الثورة شعريّا، لكن لم تكن وليدتها زمنيّا، فقد كان هؤلاء الشعراء موجودين قبل الثورة كما سبقت الإشارة» (60). لكنهم تفاعلوا ومعها، واستجابت قرائحهم لصوت انفجاراتها، وموسيقاهم لرنين رصاصها ودوي قنابلها، فكانت بذلك تلك الولادة الجديدة لهم. فكان منهم «أحمد الباتني، ومحمّد الصّالح باوية، وصالح خرفي، وأبو القاسم خمّار، وعبد السّلام حبيب، وعبد الرّحمن الزّناقي» (61) ولسنا ندري لماذا أغفل سعد الله اسم مفدي زكريا فشأنه والثّورة أشهر من نار على علم؟.

3- موضوعات أخرى: وبعد وضع هذا التّصميم للشعر الجزائري الحديث، تناول سعد الله قضايا أخرى، تخصّ هذا الشعر أيضا، يدعم بها هذا التّصميم ويثريه، يقول في ذلك «على أنّ هناك موضوعات أخرى، إلى جانب التّصميم المشار إليه، سيدرسها هذا البحث في شيء من الإيجاز وهي: (1) موضوعات الشعر، (2) حركة التّجديد، (3) خصائص الشعر، (4) ثقافة الشّاعر» (62).

1- موضوعات الشعر: من خلال نماذج عديدة ساقها في مختلف مراحل دراسته التاريخيّة هذه، تبين له «أنّ موضوعات الشعر الجزائري الحديث كانت في الغالب إصلاحيّة ووطنية، والحقيقة أنّه قد تناول أيضا الرّثاء والمدح، والوصف والتّهاني، والعتاب والحكم، كما تغلّب على هذا الشعر ظاهرة المناسبة، أي أنّه كان بعيدا عن الوحي الدّاتي إلّا في القليل النّادر، ويكاد يخلو من الغزل» (63). لكن هذا التّوجّه لم يمنعه من توسيع دائرة اهتماماته، بل «تنوّعت موضوعات الشعر خلال هذه الفترة فكان من بينها قضية فلسطين، وأحداث الشّرق العربي وغيرها من القضايا الاجتماعيّة المعاصرة، ومع التّطوّر في الموضوعات فإنّ الشعر لم ينس قطّ رسالته التّعليميّة والإصلاحيّة سيّما عند محمّد العيد وسحنون والأحمدي» (64).

2- حركة التّجديد: كان سعد الله يأمل أن يتفاعل الشعر الجزائري مع حركة التّجديد التي ظهرت بالشرق على يد الشعراء الشّباب في العراق سنة 1947، لتحطيم أسوار القصيدة العموديّة، ويستجيب لما نادى به ودعت إليه، لكن ذلك لم يحدث، يقول في ذلك: «كنت أتابع الشعر الجزائري منذ 1947 باحثا فيه عن نفحات جديدة وتشكّلات تواكب الذّوق الحديث، ولكنني لم أجد سوى صنم يركع أمامه كلّ الشعراء بنغم واحدٍ وصلاة واحدة...» (65)، وأمام هذه الحال لم يجد بدّا من أن يجربّ هو هذا التّجديد الذي كان قريبا من موطنه وهو بالقاهرة طالبا فقد بدأ أوّل مرّة ينظم الشعر «بالطريقة التّقليديّة، أي كنت أعبد ذات الصّنم واصلني في نفس المحراب، ولكنني كنت شغوبا بالموسيقى الدّاخلية في القصيدة، واستخدام الصّورة في البناء، وقد نشرت أوّل شعر جزائريّ في الهجر واليأس بعد صدمة قلبيّة» (66). إنّ هذا الهجوم العنيف على القصيدة العموديّة والتّهلل لمحاولات هدم قواعدها، إنّما جاء بتأثير مباشر من مصدرها الذي ظهر في العراق، واتّسع ليشمل أقطار الشّام ومصر، ولا ندري من يقف وراء هذا الموقف المتطرّف الذي أفصح عنه

سعد الله، اتّجاه الشّعر الجزائريّ الذي نشأ في بيئة مكانية وزمانية انفصلت بإرادة من الاستعمار ردحا من الزّمن عن أصلها الشّرقية حضارة ودينا ولغة، ومع ذلك حافظ الشّعر على أصالته وصفاء منبعه، بخلاف الشّرق الذي لم يتعرّض لما تعرّضت له الجزائر، ومع ذلك مسّته خطط الغرب ومؤامراته، فأضاع ما ضاع من قيم ومبادئ، وافتقد ما افتقد من معالم وآثار، ولم يكن الشّعر الأصيل بمنأى عن ذلك الضياع والافتقاد، فلولا نفر من أبنائه المخلصين لكانت الكارثة أعظم وأكبر... ومع ذلك يبقى الاستغراب ماثلا والتساؤل مطروحا حول موقف سعد الله هذا، ودواعيه ودوافعه، خصوصا إذا علمنا أن غايته التأريخ للشّعر الجزائريّ كما صرّح بذلك من قبل، وليس إصدار الأحكام عليه.

3- خصائص الشّعر: لقد سمح هذا التّتبّع لمراحل الشّعر الجزائري، ومن خلال النّماذج التي استعان بها للاستدلال على خصوصية كل مرحلة، أن يقف سعد الله على مميّزات وخصائص تحدّد شخصيته وتترجمها، فعمل «أكثر ما يميّز الشّعر الجزائريّ، جزالة اللفظ وحبك العبارة والمحافظة على القوالب العتيقة وفقدان الرّوح الفنيّة التّجديدية، وعدم الوحدة العضوية والموضوعية في القصيدة والكلف بالحكمة والتّقرير والتّعميم في الأحكام والاحتواء على العبارات الدّينية والتّاريخية على أساس التّضمين والاقتباس. كذلك يميّز بطول النّفس والبساطة والتّمهيد بالمقدمات الطّويلة» (67)، في الواقع هذه كلّها خصائص فنية لا يخلو منها شعر قديما كان أم معاصرا حديثا، كما أنّ هناك خصائص فنية لم يفصل فيها النّقد وبقيت وستبقى مسائل خلاقية كالوحدات والصّورة وغيرهما، بل أنّ العديد من دعاة التّجديد أنفسهم، خانهم الحظ ولم يستطيعوا الالتزام بما نادى به حركة التّجديد، فوقعوا في الغموض الشّديد والإبهام المضللّ والتّعبير السّاقط السّاذج المبتذل، ولكن مادام أنّه وجد بينهم - وأغلبهم منهم - من يطبّل لهم ويعزف، فلهم أن يرقصوا على أيّ إيقاع أرادوا، ويترنحوا على أيّ لحن شاؤوا، المهم أن يتركوا غيرهم على صنمهم وفي محاريبهم يمارسون مناسكهم على أيّ مذهب اقتنعوا به واتّبعوه...

ويعترف سعد الله بعد ذلك بفشل حركة التّجديد في بثّ ونشر دعاوها لدى الشّعراء الجزائريّين، فقد «جمد الشّعراء فلم يحاولوا الثّورة على الطّريقة التّقليدية ولم يحاولوا التّخفيف من طابع القديم، فإذا ما حاول بعضهم، مثل الطّاهر البوشيحي وجلول البدويّ والأخضر السّانحي، فإنّ ذلك لا يعدو تصفيف الكلمات وترقيق العبارة، أمّا ما يخص الأغراض البلاغية (كالطباق، والاقتباس، والتّضمين) وما يتعلّق بالقافية والوزن إلغاء وتصرفا، فهذا لم يفعل الشّعراء إلّاءه شيئا» (68). فكأنّ الشّاعر الجزائري لا يتقن إلا الثّورة على الاستعمار الجاثم على أرضه، ولا يحسن إلّاءه سود الصحائف ليعوضها ببيض الصّفائح، وكفاه ذلك تجديدا وتحديثا ...

4- ثقافة الشّاعر: يقسّم سعد هذه الثّقافة إلى نوعين: داخلية وأخرى خارجية «فالأولى تعني جميع المصبّات الرّوحية والمادية التي أثرت ولوّنت هذا الشّعر، مثلا، هناك المدرسة والمجتمع والمسجد والطّبيعة والأفكار الحزينة ومبادئ الإصلاح. أمّا الثّقافة الخارجيّة فتعني النّظريات والمذاهب الأدبية وغيرها التي دخلت الجزائر عن طريق الكتاب والرّحلات والإذاعة والصحافة سواء كانت هذه الثّقافة عربيّة أو غيرها» (69). «أمّا الثّقافة المحليّة، فتتمثّل في شعر جلول البدوي، وأبو(كذا) البقظان، وعبد الكريم العقون، والأخضر

السَّاحِي، والطَّيِّب العقبِي، ومحمَّد العيد أيضًا، فمن هؤلاء من اتَّخذ الطَّبِيعَة الجزائريَّة مادَّة لشعره ومنهم من استلهم موضوعاته من الواقع الجزائريِّ القاسي، ولكن ليس بينهم من تخصصَّ في ناحية معيَّنة. ومن الجدير بالذِّكر أنَّ الثَّقافة الأجنبيَّة قليلة في الشَّعر الجزائريِّ وذلك أنَّ معظم الشَّعراء السَّابِقين لا يتقنون غير العربيَّة» (70). بخلاف كتاب النثر كالفَصَّة والرواية ففهم العديد من أتقن لغة المستعمر وكتب بها.

وفي هذا المجال دائما لاحظ سعد الله أنَّ «الشَّعر الجزائريَّ كان قليل التَّأثر بالمذاهب الأدبيَّة الصَّرفة، ميالا إلى الاعتدال والحذر، في اعتناق كلِّ شيء غير دينيٍّ وغير إصلاحِيٍّ، ولذلك لم تنجح الرُّومانتيكيَّة في الجزائر بالرَّغم من وجودها في الشَّعر الفرنسيِّ وفي شعر الشَّابي في تونس، وليس معنى هذا أنَّ الرُّومانتيكيَّة لم تدخل الجزائر على الإطلاق، ولكن معناها أنَّ الذين أرادوا الانتفاع بها مثل الطَّاهر بوشيشي وجلول البدوي، لم يصلوا إلى شيء لأنَّ الظُّروف الاجتماعيَّة وقفت حائلا، ويبدو أنَّ محمَّد (كذا) العيد بالخصوص قد تأثر بجبران وفلسفته إلى حدِّ كبير» (71).

ويبدو أنَّ الأمر لم يعد مسألة تجاوب أو تجريب بل أنَّ الأمر انتقل إلى مقاومة كلِّ محاولة ترمي إلى المساس بحرمة القصيدة الأصيلَّة، أو يحاول تشويه شخصيَّتها، والطَّعن في جذورها «ومما يلاحظ أنَّه بينما تخلَّفت المدرسة الوسطى في المشرق العربي، فإنَّها في الجزائر ما تزال شائعة ومسيطرَة، وما يزال لها أنصارها الذين يرفضون كلَّ تطوير في القوالب أو الأساليب الشَّعريَّة، وهم لا يكتفون بذلك، بل يقفون في وجه كلِّ من يحاول الخلاص من تلك القيود» (72).

هذه هي تصوُّرات سعد الله في تأريخه وتوثيقه للشَّعر الجزائريِّ وموقفه النَّقديِّ إزاءه، فهي تصوُّرات مؤرَّخ ميالٍ إلى تذوق الأدب وفنونه، ليس إلا.

ثالثا: النَّقد:

خصَّ سعد الله النَّقد الجزائريَّ بمقال نشره بمجلَّة (الأداب) ببيروت (73)، تحت عنوان: (محاولاتنا في النَّقد الأدبي)، استعرض فيه المراحل الَّتِي مرَّ بها هذا النَّقد، وقبل تفصيل تلك المراحل، مهَّد له متحدثا عن جدلية العلاقة بين النَّقد والأدب، «ولكي أكون صريحا أحبُّ أن أزيل من ذهن القارئ فكرة قد تخامرته، وهي أنَّي أدرك مدى خياليَّة هذا الموضوع، إذ كيف نتحدَّث عن النَّقد الأدبي في الجزائر بينما لا نعترف أو لانكاد نصدِّق أنَّ عندنا أدبا ناضجا شقَّ طريقه مع قافلة الأدب العربيِّ المعاصر، أو الأدب العالميِّ؟!» (74). فمن الطَّبِيعِي أنَّ يتأخَّر النَّقد الأدبي في الجزائر، مادام أنَّ هناك تأخرا أصاب الأدب من قبله، إلا إذا استثنينا محاولات جادَّة وناضجة، تصلح لتحريك آليَّة النَّقد بالجزائر. وما دمنا «نعترف بوجود محاولات في الأدب فمن الحقِّ أنَّ نعترف كذلك بوجود محاولات أخرى في النَّقد، إنَّها مجرد محاولات تتلاءم مع المستوى الفنِّي لإنتاجنا الأدبيِّ، ولو أنَّنا استعرضنا تحولاته لوجدنا أنَّها قد مرَّت بعدة مراحل رئيسيَّة» (75). وهذه المراحل حصرها سعد الله في أربع، نستعرضها كما يلي:

* المرحلة الأولى: «تتمثَّل هذه المرحلة في الحملات الَّتِي كان يقوم بها بعض شيوخ الجزائر، في أوائل هذا القرن (76)، يدعون فيها إلى نبذ الجديد والتَّشكيك في قيمته الفنيَّة الموضوعيَّة، وإلى الأخذ بالقديم لا باعتباره

نماذج خالدة ولكن باعتباره تراثا قومياً، ومن هنا يجب التمسك به في العودة إليه نهما كانت قيمته الجمالية، ولهذه المرحلة مبرراتها من الواقع الثقافي والسياسي آنذاك، وإن كنا لانريد التعرض لهذه المبررات الآن» (77)، وقد كان لهذه المرحلة شيوخها الرواد كما وصفهم سابقا «وكان على رأس زعماء هذه المحاولات الشيوخ أبو القاسم الحفناوي، وعبد القادر المجاوي، والمولود بن الموهوب، ومحمد بن أبي شنب، ومحمد كحول، وذلك في المحاضرات والدروس والندوات التي كانوا يلقونها في الثعالبية ونادي صالح باي، ومدرسة الجزائر، أو في الآراء التي كانوا يدلون بها للصحافة المحلية والتوجيهات الشخصية لتلاميذهم ومريديهم» (78) فهذه النشاطات الفكرية دليل على تلك الحركة الثقافية التي كانت سائدة، رغم التضيق والرقابة الشديدة التي كان يفرضها الاحتلال على الحركة العلمية في الجزائر.

* المرحلة الثانية: «وهي مرحلة تظهر فيما كان يدرسه الشيخ عبد الحميد بن باديس لتلاميذه من طرائق الأدب وأساليبه، من اللفظة الجزئية حتى البناء الكامل... إذ كان يدعو تلاميذه والمنتفعين بثقافته إلى القديم والجديد معا، القديم في محاسنه ووزانته، والجديد في طلاقته وتطوره، وإذا كانت هذه الدعوة من الشيخ عامة، تشمل أسلوب الإصلاح معا، فلقد كانت أوضح ماتكون فيما عالجها من وسائل الأدب لتلاميذه ولاسيما في دراسة الكامل والأمال وغيرهما» (79). فيبدو من خلال هذا التوصيف أن هذه المرحلة قد صاحبت فكرة الإصلاح التي بدأت تنضج قبل تأسيس جمعية العلماء ثم اشتدت بعدها، لتكون محاضن الجمعية بيئة مناسبة لتطورها ونمائها، كما أننا نستنتج من ذلك أن المشافهة النقدية كانت أغلب من التدوين والكتابة والنشر...

* المرحلة الثالثة: «وتأتي هذه المرحلة على يد الشيخ البشير الإبراهيمي الذي كانت ثقافته الأدبية أنضج من زميله الشيخ باديس، وبينما كان الدرس المشافهة الموجه أغلب على الأخير كان القلم واللسان أغلب على الإبراهيمي، وقد أعطته هذه الميزة ميلا خاصا للنقد والتوجيه فاتخذ من الصحافة ولاسيما جريدة البصائر، منبرا لقيادة الجيل الجديد في الأدب سواء فيما كان ينشره من نماذج تثير الإعجاب وتدعو إلى الاحتذاء، أو كانت تنشره الجريدة -وبإرشاده- من شروط للأدباء والكتّاب الذين يرغبون أن يساهموا في التحرير» (80). فالفضل في التعرف على نقد هذه المرحلة، قد عاد بالدرجة الأولى إلى الصحافة المكتوبة، ونخص منها صحافة الإصلاح، وعلى رأسها البصائر العلمائية.

ويتضح أيضا بالنسبة لهذه المرحلة، أن للشيخ الإبراهيمي منهجه في تدريس النقد، فقد كان على صلة «أكثر بالجيل الذي تخرج علميا على الشيخ باديس، فقد كان هؤلاء يتحدثون إليه في شؤون الأدب قديما وحديثا، وينشدون الشعر بين يديه، وكان الشيخ ينتقدهم بشدة ويشير إلى مواطن الضعف وقد يستحث المجيدين على الاستزادة أو يضع أمامهم النماذج الرائعة من الشعر أو النثر القديم والمعاصر. وقد زاد الأدباء إغراء بالشيخ وإعجابا بآرائه في الأدب ما عرف عنه من كثرة الحفظ وما اشتهر به لسانه من طلاقة وبيان» (81).

* المرحلة الرابعة: وهي نتاج المرحلتين الثانية والثالثة، وقد أفاض الحديث عنها، فهي تمثل بالنسبة للعصر الذي كتب فيه عنها، من أنضج وأرق المراحل إذا قيس بالتي سبقتها، إذ «يعتبر الجيل الذي تخرج علميا على الشيخ باديس، وثقافيا على الشيخ الإبراهيمي زعيما هذه المرحلة التي تبتدئ بعد الحرب العالمية

الثانية. على أنّ هذه المرحلة بالرغم من صلتها الوثيقة بالقديم قد أخذت تتحرّر في أسلوبها وموضوعها كما أخذت تطبّق بعض المذاهب النقدية التي اكتسبتها من ثقافتها المعاصرة، فظهر المذهب الواقعي في إنتاج رضا حوحو والمذهب السلوكي في أحمد بن ذياب واحتفظ الشعر ببعض خصائص الرومانتيكية الصارخة كالثورة والشكوى» (82).

ويبدو أنّ هذه المرحلة كانت زاخرة بالدراسات النقدية، كما عرفت أسماء كثيرة وجّهت مجال اهتمامها إلى هذا الدرس، ممّا جعل سعد الله يخاطب القارئ في الشرق من ناقد ودارس وباحث أو حتى مؤرّخ، بقوله: «في هذه المرحلة، فقد اكتسبنا تجربة أخصب بفضل التطوّر الذي اتّسمت به حركة الأدب من ناحية، ثم بفضل الضغط الذي حاول أن يوجّه الأدب جهة خاصّة، وإن يبلغ درجة النقد التزيه الناضج المتطور، ففي هذه المرحلة دخلنا باب القصّة العربية وحاولنا كتابة المسرحية الناجحة، وظهر عندنا أدب الخاطرة، وتطوّرت في كتاباتنا دراسة الشخصيات، وتلاقحت أفكارنا بمعطيات جديدة من الشرق العربي ومن أوروبا، فأخذنا من كلّ ذلك وحملنا كتابنا وشعرنا عليه ولكننا لم ننجح النّجاح كلّه إلا مع الكتابة، أمّا الشعراء فقد بقوا على ما هم عليه، إذ لم يظهر عندنا في هذه المرحلة ناقد شعريّ متمكّن بخلاف نقاد المراحل السابقة في العقيدة والمناهج، وبذلك ركّدت حركة الشعر إلى حين، أمّا الكتاب فكانت الحملة عليهم قويّة من أحمد رضا حوحو وحمزة بوكوشة وعبد الوهاب بن منصور وغيرهم» (83). ويبدو لي أن سعد الله ومن خلال مضمون هذا المقال، كأنما يقدّم تقريراً لجهة ما، كلّفته بمهمّة استقراء الوضع النقديّ والأدبيّ في الجزائر، كما أنّ هناك أمر آخر يطرح حوله السؤال وهو: ماهي الوجهة الخاصّة التي كانت تضغط على الأدب ليتّجه نحوها؟ وما المراد بالعقيدة والمنهج الذي كان عليه نقاد المراحل السابقة؟ إنّها مسائل تدعو إلى التوقّف عندا والتّمعّن فيها.

ومثل غيرها من المراحل فقد كان لهذه المرحلة أعلامها، فمن «أبرز أصحاب هذه المدرسة حمزة بوكوشة وحوحو وذياب وعبد الوهاب بن منصور ومولود الطيّاب الذي كان أكثر هؤلاء نقداً وأقربهم إلى الموضوعيّة الهادفة مع أنّه لم يكن من مدرسة الشيخ الإبراهيميّ بل كان ينشر نقده وأبحاثه في مجلّة (هنا الجزائر)» (84) التي تصدر عن هيئة الإذاعة المحليّة» (85).

وفي آخر هذا المعرض للمراحل التي مرّت بها حركة أو محاولات النقد الأدبي في الجزائر، توصّل سعد الله أنّه «يحقّ لنا الآن أن نتساءل عن ميزات كلّ مرحلة ومدى نجاحها في تطبيق المذاهب الحديثة والاستفادة منها من حيث القدم والجدة ومن حيث الموضوعات التي تطرّقت إليها» (86).

الخلاصة:

لقد استعرضنا في هذا الورقة، إسهامات سعد الله في توظيف المنهج التاريخي في التّأريخ والتّوثيق للأدب الجزائريّ وشعره ونقده، باعتباره شاهد عيان، عاش كلّ تلك الفترات والمراحل، وواكب مسيرتها، واحتك بالعديد من أعلامها، وتابع نشاطاتها الفكرية والعلمية منذ نشأتها إلى غاية المراحل المتقدّمة منها، ولم يكتف بعملية التّأريخ والسرد والإحصاء، لكنّه تجاوز ذلك إلى النقد، فتارة وجدناه موضوعياً وتارة أخرى، كان فيها ذاتياً انهال على الكثير من معالمها والعديد من أعلامها بالهجوم الشرس، والقبح القاسي، متجاوزاً حق التماس الأعذار خصوصاً أنّ الجزائر كانت في وضع لا تحسد عليه، فالاستعمار جاثم

على أرضها، والحرمان شاخص، والتخلف ماثل، والأمية منتشرة، والجهل متفشٍ، فأنا يكون لها أدب راقٍ، أو شعر فائق أو نقد ناضج... مع أننا نقرّ أن لها في كلّ ذلك نصيب محفوظ وفضل غير مبخوس...

لقد تبين لنا أنّ مواقف النّقدية، كانت طبق الأصل لنقد المشاركة لأدبهم وشعرهم ونقدهم، فهم وإن كانوا هم صائبون في ذلك، نظرا للّهضة الكبيرة التي عرفت أقطارهم من حيث: المدارس الأدبية والنقدية، وأعلام الفكر والتأليف والكتابة، وصحافة مكتوبة ومسموعة، ومكتبات عامرة، ونوادٍ في حركة دائبة، ودور نشر نشطة، فإنّ الأمر في الجزائر خلاف ذلك تماما، كما ألمحنا إلى ذلك قبلًا.

يبدو أن سعد الله أظهر تحاملا خفيا يكاد يكون ظاهرا، اتّجاه حركة الإصلاح ونشاطاتها وتوجّهاتها، ولم نجده متحفّظا حذرا إلا عند ذكره لاسم رائديها ابن باديس والإبراهيمي، وفي المقابل وجدناه هادئا ميالا لغيرها من الأسماء التي يبدو الكثير منها غير معروف أو مشهور، ونخص منهم أعلام مجلة (هنا الجزائر)، كما ألفيناه منتشٍ بالثقافة الوافدة من الغرب حين حديثه عن الرومانتيكية الفرنسية، وهي مواقف لانلومه عليها، ولكن كنّا نتمنى لو خفف من حدّة التّهجم على الحركة الإصلاحية وعلى المدرسة الشرقيّة (المدرسة الوسطى)، فقد أثبت الزمن أنّه لولاها لما بقي في الجزائر لسان واحد ينطق ضادا، ولا يفكر عروبة، ولا يدين توحيدا، ولا روح فيه هواها شرق...

لقد بدا لنا وبوضوح بعض التّضارب في مواقف سعد الله حين حكمه على لغة وأسلوب وإنتاج الأدب والشعر، فتارة يقدر فيها بشدّة، وبعد اسطر نلفيه مادحا لكل ذلك، ويبالغ في الإطراء، المر الذي جعلنا نقف متسائلين عن هذا السلوك الصّادر منه.

إن كتابه هذا وفي جملته، والذي أتينا على عرض محطات منه، يعدّ مصدرا هامًا ووثيقة مرجعية ضرورية، تؤرّخ لفترات زمنية متقاربة، وإن كانت قد عاشت ظرفا واحدا، يحتاج إليها الباحثون والدّارسون لتوثيق أبحاثهم وأعمالهم، وهو ندعو إليه ونحث عليه، بغية الكشف عن كثير من جماليات أدبنا في تلك الحقب التي أتى عليها سعد الله.

الهوامش:

1. موسوعة: تاريخ الجزائر الثقافي (10 أجزاء)، نشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
2. من مؤلفاته، في الأدب: سعة خضراء (قصص)، تجارب في الأدب والرحلة. وفي في الشعر: ديواوين: (النصر للجزائر)، (الزمن الأخضر)، (أغاني الجزائر)، أما في الدّراسات والنقد: (دراسات في الأدب الجزائري الحديث). وغيرها كثير التاريخ والتّحقيق والسّير.
3. دراسات في الأدب الجزائري الحديث: أبو القاسم سعد الله، دار الزائد للكتاب، الجزائر، ط: 5، 2007.
4. صدرت أول طبعة له ببيروت سنة 1966، عن دار الآداب، أما الثانية فكانت بالجزائر العام 1976، ثم توالى طباعته فيما بعد.
5. دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص: 6.
6. المرجع نفسه، ص: 7.
7. القرن التاسع عشر.
8. يقصد كتابه: شاعر الجزائر، محمّد العيد آل خليفة، وبه مقدّمة للشيخ محمّد البشير الإبراهيمي كتبها له العام 1960 بالقاهرة، قدّم بها الطبعة الأولى، وقد نُشر عدّة مرات.
9. كتابه: الشاذلي القسنطيني من شعره ورسائله، وهو مطبوع.
10. كتابه: الحركة الوطنية الجزائرية، في أربعة أجزاء.
11. دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص: 9.

12. Chronology "الميقاتيّة" أو "كرونولوجيا" مأخوذ من اليونانية: (χρόνο): كرونوس: زمن، و: (λόγος): لوغوس: علم، وهي تعني: تأريخ الحوادث وفقاً لتسلسل وقوعها.
13. كان المستشرقون من مثل كارل بروكلمان، من أوائل من أَرخوا للأدب العربيّ وفق العصور السّياسيّة الإسلاميّة، وعنهم أخذ الدّارسون العرب منهجهم هذا، مثل: طه حسين، عمر فروخ، شوقي ضيف، حنا الفاخوري وسواهم ...
14. العدد: 5، 6، السّنة الثانية 1960.
15. يُنظر: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، أبو القاسم سعد الله، ص: 21.
16. المرجع نفسه، ص: 21.
17. المرجع نفسه، ص: 22.
18. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
19. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
20. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
21. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
22. التّقدميّة مصطلح سياسي، «هي كلّ مذهب يقوم على فكرة تقدّم مستمرّ وصاعد للبشريّة، وهي تميّز موقف هؤلاء الّذين يؤيّدون تحقيق إصلاحات جذرية في ميدان معيّن.» قاموس المصطلحات السّياسيّة والدّستوريّة والدّولية، أحمد سعيّفان، مكتبة لبنان، ناشرون، مكتبة لبنان، ط1، 2004. وقد تبناه العديد من المفكرين والسّياسيّين الاشتراكيّين في البلاد العربيّة، ومنهم من أنشأ أحزاباً حملت اسمها.
23. دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص: 24.
24. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
25. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
26. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
27. المرجع نفسه، ص: 25.
28. القرن العشرون.
29. دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص: 25.
30. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
31. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
32. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
33. المرجع نفسه، ص: 26.
34. التّيار «أتجاه تتّبعه مدرسة من مدارس الأدب، أو الفنّ، وتتنقّذ بأصوله، من غاية جماليّة، ومضمون، وتقنية تعبيريّة. وبأن تقارب التّيار والمدرسة فس المفهوم، فإنّ الأول أشمل، وأبعد مدلولاً، لأنّ تياراً واحداً قد يشمل عدّة مدارس فنيّة متناثرة في كثير من مواقفها...» المعجم الأدبي، جِبّور عبد التّور، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979، ص: 80.
35. دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص: 26.
36. المرجع نفسه، ص: 26، 27.
37. «الرّومانتيكيّة المصطلح الّذي ابتدعه الكاتب الفرنسي ستندل (Henri Beyle, dit Stendhal) (1783-1842) في مبحثيه المسميّين "راسين وشكسبير" (Racine et Shakespeare) (1823 و 1825) حيث عالّج إمكانيات تشخيص الأدب الجديد في عصره، عمّا سمّاه بالأدب الكلاسيكيّ» معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبه، مكتبة لبنان، بيروت، 1974، ص: 488.
38. الرّومانتيكيّة أو الرّومانسيّة أو الإبداعيّة «صفة تطلق على كلّ مايتعلّق بالزّعة الأدبيّة الّتي شاعت من أواخر القرن الثّامن عشر حتّى منتصف القرن التّاسع عشر، وكانت تُبرز الخيال الإبداعيّ والتّعبير الدّاتي والولع بالطّبيعة موضوعاً للأدب ومعيّاراً لجودته»، المرجع نفسه، ص: 487.
39. مدرسة المجر: وهما اثنتان، وبالقارة الأمريكيّة، الأولى في الشّمال بالولايات المتّحدة الأمريكيّة، وتُسمى بالرابطة القلميّة، تأسّست عام 1920، وترأسها الكاتب اللّبناني جبران خليل جبران، والأخرى في جنوبها بالبرازيل، وتُعرف بالعصبة الأندلسيّة، تأسّست مطلع عام 1933، وترأسها الشّاعر اللّبناني المهاجر **ميشيل نعمان معلوف**.
40. أبوللو: جماعة شعريّة إحدى المدارس الأدبيّة في **الأدب العربي** الحديث، أسّسها الشّاعر **أحمد زكي أبو شادي** عام 1932، وترأسها بداية أحمد شوقي، وضمت الجماعة شعراء الوجدان في **مصر والوطن العربي**. المتأثرين بشعر الرّومانتيكيّين الأوروبيين، وبخاصّة الإنكليز.

41. دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص: 27.
42. الواقعية أو المذهب الواقعي: «ازدهرت مدرسة واقعية في الأدب الفرنسي في منتصف القرن التاسع عشر... وكانت هذه المدرسة تتميز بالقصص الواقعي الذي تكون موضوعاته قد اشتقت من حوادث ذكرت فعلا في الصحف اليومية، أو تكون مبنية على وثائق تاريخية دقيقة تصوّر أشخاصا عاديين في حياتهم اليومية تصويرا تلتشى فيه الأهواء الشخصية للكاتب، وهذه هي الدراسة التي ينسج على منوالها إلى حد كبير القصاصون المحدثون في العالم العربي.» معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبه، ص: 467.
43. دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص: 28.
44. المرجع نفسه، ص: 29.
45. العدد: 12، 1957.
46. دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص: 32.
47. المرجع نفسه، ص: 52.
48. المرجع نفسه، ص: 35.
49. المرجع نفسه، ص: 36.
50. المرجع نفسه، ص: 46.
51. المرجع نفسه، ص: 35، 36.
52. المرجع نفسه، ص: 36.
53. المرجع نفسه، ص: 37.
54. المرجع نفسه، ص: 38.
55. المرجع نفسه، ص: 39.
56. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
57. المرجع نفسه، ص: 42.
58. المرجع نفسه، ص: 43.
59. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
60. المرجع نفسه، ص: 46.
61. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
62. المرجع نفسه، ص: 36.
63. المرجع نفسه، ص: 48.
64. المرجع نفسه، ص: 43.
65. المرجع نفسه، ص: 50.
66. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
67. المرجع نفسه، ص: 49.
68. المرجع نفسه، ص: 50.
69. المرجع نفسه، ص: 52.
70. المرجع نفسه، ص: 53.
71. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
72. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
73. العدد التاسع، سبتمبر 1960.
74. دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص: 79.
75. المرجع نفسه، ص: 80.
76. القرن العشرون.
77. دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص: 80.
78. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
79. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

80. المرجع نفسه، ص: 81.
81. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها..
82. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
83. المرجع نفسه، ص: 83.
84. (هنا الجزائر) أو (Ici Alger) مجلة تابعة لإذاعة فرنسا بالجزائر أصدرها الاحتلال الفرنسي عام 1952 وهي مشروع كان مقرّرا له أن تصدر بثلاث لغات: الفرنسية والعربية والأمازيغية، واستمر صدور هذه المجلة إلى عام 1960 حيث صدر منها 83 عددا بالعربية والفرنسيّة فقط. وقد تولى مسؤوليات وكتب فيها العديد من أعلام الجزائر في الإصلاح والأدب والشّعر والمقالة والفكر وغير ذلك.
85. المرجع نفسه، ص: 81.
86. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

المصدر:

- دراسات في الأدب الجزائري الحديث: أبو القاسم سعد الله،

المراجع:

1. المعجم الأدبي: جبور عبد النّور، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979.
2. معجم مصطلحات الأدب: مجدي وهبه، مكتبة لبنان، 1974.
3. قاموس المصطلحات السياسيّة والدستوريّة والدّوليّة، أحمد سعيّفان، مكتبة لبنان، ناشرون، ط1، 2004.